الدروس المستخلصة من شخصية صلاح الدين الأيوبي وسياسته

ا.م.د. عبد الهادي محمد عباس
م.م. أحمد طارق حمودي

جاءت شخصية البطل صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله) من رحم الجهاد بعد مخاضات عسيرة عاشتها الأمة العربية الإسلامية بجهاد أبنائها المخلصين الصادقين الذين نذروا أنفسهم لله دفاعاً عن دينه وشرعه ، فظهرت ما بين ٤٩٠هـ – ٥٤٠هـ قيادات جهادية فذة أخذت على عاتقها أمانة الجهاد واستنهاض طاقات الأمة لقتال أعدائها – الفرنجة الصليبيين– في بلاد الشام ونجحت تلك القيادات في تحقيق انتصارات باهرة على الجهد العسكري الإفرنجي واستعادت بعض المدن التي اغتصبها الفرنجة وجاء ذلك بعد نجاحها في جمع كلمة المسلمين ولم شملهم في مواجهة الصليبيين ومن ابرز تلك القيادات كربوقا صاحب الموصل وكمشتكين بن الدانشمند ، وبلك بن بهرام ، وسقمان ، وجكرمش ، إلا أن هذه القيادات لم تستطع الحفاظ على حالة التوحد ، فجاءت جهود عماد الدين زنكي الجهادية لترسم حالة جديدة اتسمت بالقوة والتنظيم ، ونجحت في تحقيق أهداف استراتيجية غيرت ميزان القوة لصالح الجهد العسكري الإسلامي ودفعت الفرنجة الى اغتياله سنة ٥٤١هـ .

إلا أن ولده نورالدين محمود كان بمستوى المسؤولية ورجل المرحلة الذي كانت الأمة بأمس الحاجة لأمثاله ، ذلك انه أتم طريق الجهاد الذي رسمه والده عماد الدين زنكي وكان أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي ذراعه الأيمن والذي كان صلاح الدين الأيوبي قد تعلم منه الكثير من الدروس في التدريب والقيادة ليكون فيما بعد ذراعه الضاربة في الأيام القادمة وقد توجت جهودهم بتوحد كلمة المسلمين وإنهاء الدولة الفاطمية والدعوة للخليفة العباسي المستضيء سنة ٥٦٤هـ(١) ولابد من الإشارة إلى أن حياة الأسرة

الأيوبية سياسياً وإدارياً وعسكرياً بدأت عندما خدم أيوب بن شادي السلطان محمد بن ملكشاه الذي اقطعه قلعة تكريت إكراماً له ولأمانته سنة ٥٢٥هـ ، إلا أن وفاة محمد وتولي مسعود السلطنة جاء لينهي إمارته على تكريت حيث اقطعها مسعود إلى بهروز شحنة بغداد وأضاف له جميع الولايات المتاخمة [٢] وانتقل بعد ذلك إلى الموصل ليعمل تحت قيادة عمادالدين زنكي ، وكانت ولادة صلاح الدين الأيوبي في قلعة تكريت في يوم عزل والده عن إمارتها ، فانتقل مع أسرته إلى الموصل تحت كنف عمادالدين زنكي وترعرع في ذلك الوسط الجهادي حتى بروزه كشخصية قيادية [٣] .

مكونـات الشخصية القياديـة
عند صـلاح الديـن

أولاً) البيئة الاجتماعية :

١. أسرته :

عاش صلاح الدين طفولته ونشأته في وسط أسرة معروفة (٤) بالصلاح والتقوى فأبوه نجم الدين أيوب كان عاقلاً شجاعاً حليماً جواداً عاطفاً على الفقراء والمساكين محباً للصالحين ، قليل الكلام لا يتكلم إلا عن ضرورة وكان يحب ركوب الخيل (٥) ، وعمه أسد الدين شيركوه كان من القادة الكبار في جيش نورالدين محمود ، وخاله شهاب الدين محمود كان من الأمراء والقادة ايضاً (٦) ، فلا غرابة أن يكون صلاح الدين (رحمه الله) بهذا المستوى الرفيع فقد تربى في بيت عز وجاه وجهاد حيث كان أبوه وعمه وخاله الذراع اليمنى واليد الضاربة في جيش المجاهد نورالدين محمود وقد ارتسمت علامات الشخصية القيادية على صلاح الدين في وقت مبكر حيث التحق نجم الدين ايوب للعمل مع عمادالدين زنكي أمير الموصل وعندما حرر عمادالدين زنكي بعلبك سنة ٥٣٤هـ عين نجم الدين ايوب والياً عليها (٧) ومن هذا التاريخ بدأت قصة البطل صلاح الدين الأيوبي حيث عاش ومنذ نعومة أظفاره مراحل الجهاد ضد الوجود الفرنجي على ارض بلاد الشام وكان يسمع ويرى الاعتداءات الفرنجية على مدن وقرى الشام ، ويعد العام ٥٤٦هـ بداية دخول صلاح الدين معترك الصراع حيث شهد هذا العام هجوماً افرنجياً على مناطق نفوذ والده في بعلبك وتحديداً على سهل البقاع

المجاور ، فتصدت لهم القوات الإسلامية بقيادة نجم الدين أيوب ، وكان صلاح الدين يناهز عمره الرابعة عشر ربيعاً ، وهذا السن يؤهله للمشاركة في القتال إلى جانب والده سيما وانه عاش ظروف الجهاد منذ نعومة أظفاره ، إذن فالتجربة القتالية ومعايشة الظروف الصعبة والتربية على حب الجهاد مهمة جداً لخلق روح القيادة الفذة وخلق شخصية قيادية متميزة .

من هنا يمكن القول إن الأسرة تلعب دوراً كبيراً في تكوين الشخصيات القيادية ، ذلك أنها تؤثر تأثيراً كبيراً في بروز حالات الإبداع في وقت مبكر وتعمل على صقل المواهب خصوصاً اذا كان في الأسرة أكثر من شخصية قيادية ساهمت في تنمية القابليات العسكرية والقيادية ، أدت إلى ظهور التجربة الجهادية عند صلاح الدين بصورة تلقائية ولكنها تحمل معان عالية تركت آثارها الايجابية في شخصيته في الجانبين العملي والمعنوي الأمر الذي جعل شخصيته مميزة ومؤثرة وفاعلة في الوسط الذي عاشه واستطاع بجدارة أن يجذب إليه أنظار القيادة المتمثلة بالمجاهد نورالدين محمود الذي حظي عنده صلاح الدين الأيوبي بمكانة متميزة استحقها بجدارة ، فقد عرف نور الدين محمود ببصيرته الثاقبة ، كوامن الإبداع والتميز في شخصية صلاح الدين وأدرك نبل الهدف الذي رسمته له البيئة في تكوين شخصيته وإمكانية الاعتماد عليه باعتباره شخصية قيادية واعده حيث ظهرت عليه أمارات القيادة في وقت مبكر جعلت عمه اسدالدين شيركوه يقربه إليه ويجعل منه الذراع الأيمن في جيشه واليد الضاربة في معضلات الأمور ، لذلك فان ظهوره – كشخصية قيادية – كان في ظروف سياسية معقدة تتسم بالصراع والفوضى والتشتت لذلك شكلت شخصيته القيادية حدثاً مهماً في التاريخ الإسلامي ، وليست حادثة

عابـــرة (فهو يمثل إحدى تلك اللحظات النـــادرة والمثيـــرة فـــي التـــاريخ البشري) [٨] .

٢. عصره وبيئته :

يتمثل ذلك في البيئة التي تشكلت فيها شخصية البطل صلاح الدين فقـــد كان للموقف الشعبي دوراً فاعلاً في رسم ملامح الشخصية القيادية عنده حيث عاش في بيئة على درجة عالية من الوعي الثقافي تزعمتها فئتين في المجتمع استطاعت التناغم مع طموحات الشعب العربي الإسلامي وهما :

أ. علماء الدين .

ب. الشعراء .

وكانت هاتين الفئتين تناغمت مع طموحات القيادة التي حاولت بكل ثقلها استنهاض طاقات الأمة باتجاه خلق حالة من النهـــوض الشـــعبي لمواجهـــة الاحتلال الفرنجي وتحرير بلاد الشام .

وقد ذكر العليمي كثير من الأحاديث والقصد من نشرها هو إثارة حمية المسلمين ودفع السلاطين والخلفاء للعمل من اجـــل تحريـــر القـــدس وكـــان الشخص الذي يريد أن يخجل إنساناً يذكره باحتلال الصليبين لبيـــت المقـــدس وكان لعلماء الدين دور بارز في شحذ همم الناس وبيان قدسية الجهاد وحرمته واجر من تعامل في سبيل الله [٩] . من خطره حيث كان للبيئة التي تشـــكلت فيها شخصيته دوراً كبيراً ذلك أن الموقف الشعبي كان على درجة عالية مـــن الوعي بالظروف التي تحيق بالأمة آنذاك وظل الشعب على كـــل مســـتوياته الثقافية مُستَنفراً ومُذكراً قادته بضرورة تحرير بيت المقـــدس مـــن الـــرجس

الصليبي ، وكان للشعراء والكتاب ورجال الدين من العلماء ومثقفين دوراً كبيراً في تنبيه المجتمع وحثه على المستوين الشعبي والرسمي على ضرورة الجهاد وأهميته ومن ذلك ما كان للشاعر علي بن هبة الله من دور بارز في استنهاض الشعب وقيادته فهو يخاطب المجاهد السلطان نورالدين محمود بضرورة التأكيد على الجهاد ورفع رايته بتحرير بيت المقدس في قصيدة منها قوله (١٠):

وطهر المسجد الأقصى وحوزته   من النجاسات والإشراك والصلبِ
عساك تظفر من الدنيا بحسن قنا   وفي القيامة تلقى حسن منقلب

وما أشبه اليوم بالبارحة فهاهم أهل العراق في ظل الاحتلال الأميركي الصهيوني يذكر بعضهم بعضاً بان الوحدة والتلاحم ونبذ الفرقة والتعاون والتآلف ونبذ الطائفية والعنصرية المقيتة هي الحل الوحيد للخروج من حالة التفكك والتشرذم وانعدام الأمن ويؤكد بعضهم لبعض أن العدو واحد فإذا كان هنالك بقية من قوة فيجب أن تصب في خندق الجهاد لهزيمة الجيوش الكافرة التي تجثم على قلوب العراقيين منذ الهجمة الصليبية الثانية في العام ٢٠٠٣ واحتلال بغداد في يوم ٢٠٠٣/٤/٩م ، لقد كان عصر صلاح الدين الأيوبي يتسم بالشعور العام بالمسؤولية بين الحاكم والمحكوم ولا يتوقف عند حد الحاكم بل كان الشعب هو المحرك الأساس ؛ لان حالة الوعي بما كانت عليه حالة الأمة آنذاك جعلت الشعب الأداة الفاعلة واليد الضاربة التي تتولى عملية التحرير من خلال قيادة مؤمنة بحتمية الانتصار ، هذا هو الجو العام والبيئة التي عاش فيها صلاح الدين الأيوبي والتي كان لها دور كبير في تكريس مبدأ الجهاد في عقليته ونهجه سلوكاً وفعلاً بضرورة تحرير بلاد الإسلام وعلى

رأسها القدس الشريف وقد اخذ علماء الدين على عاتقهم بيان قدسية الجهاد وحرمتها واجر من يقاتل في سبيل الله فقد أوضح الظاهري من خلال تفسيره لبعض آيات القران التي أوضح فيها أهمية الجهاد في تحرير الأرض ومنها بيت المقدس على وجه الخصوص وشجع الناس على ذلك من اجل استعادتها حيث قال في تفسير قوله تعالى ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾(*) هي الأرض المقدسة وروي عن رسول الله ﷺ (من زار بيت المقدس محتسباً أعطاه الله ثواب ألف شهيد) (*) وكان للعلماء دوراً مهماً أسهم في تنمية الروح القيادية والجهادية التي تناغمت مع دور الشعراء وتفاعلت مع البيئة الاجتماعية التي عاشها صلاح الدين الأيوبي حيث لعب الجهاد والروح العسكرية جزء لا يتجزأ من حياته عاشها بكل دقائقها وهذا ما يقابله في عصرنا الجانب الإعلامي الهادف الذي لو أحسنت القيادات العربية الإسلامية توجيهه لكان عاملاً فاعلاً ومؤثراً في استنهاض همم الأمة ونشر الوعي بما عليه الأمة الآن من الوهن والضياع وقد صور لنا الرسول الكريم محمد ﷺ حال الامة هذا تصويراً بديعاً في حديث شريف قال فيه : (يوشك ان تداعى عليكم الامم ، كما تداعى الاكلة الى قصعتها) فقال قائل : امن قلة نحن يومئذ ؟ قال : (بل انتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن) فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال (حب الدنيا وكراهية الموت) (*) ، إلا أن غياب هذا السلاح الهام الذي أصبح أداة فاعلة بيد أعداء الأمة يوجهونه لصالح مخططاتهم ومؤامراتهم على العروبة والإسلام في محاولة لخلق حالة الانهزام والتراجع لدى الأمة وضربها بالصميم أي في عقيدتها لخلق حالة التمزق

والتشرذم والإسهام الفاعل والمبرمج في تكريس الطائفيـة والعنصـرية فـي الأوساط الاجتماعية في ظروف تخلت فيها جميع القيادات المزعومة عن أداء دورها في إنقاذ الأمة من خلال وحدة الكلمة والصف .

إذا يتضح مما تقدم ان البيئة الاجتماعية التي تشـكلت فيهـا شخصـية صلاح الدين كانت تعيش حالة النهوض والوعي وكأن الحاكم والمحكوم فـي خندق واحد وهو خندق الجهاد والتوحد لا كما هي عليـه حالـة الأمـة الآن فالحاكم في وادٍ والمحكوم في وادٍ آخر وأصبح الحكـام عبـارة عـن ادوات يحركها أعداء الإسلام كيفما يشاءون وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبـاءو بغضب من الله ففي الوقت الذي تجتاح فيه جيوش النصارى واليهود بقيـادة امريكا والكيان الصهيوني بلاد الإسلام في فلسطين وافغانستان والعراق وتتهيأ لضرب سوريا والهيمنة على لبنان فان إعلام الحكام أصبح أداة لضرب حالة النهوض والوعي التي تطمح إليها الأمة العربية الإسلامية.

وكان للقنوات الإعلامية المسمومة دورٌ فاعلٌ في قلب الحقائق وتوجيـه التهم الى الإسلام والمسلمين بشتى الطرق والأساليب ولم يسلم منهم القـران الكريم ولا الرسول ﷺ ولا بيوت الله (المساجد) التي أصبحت هدفاً مهمـاً لهم فنرى – المساجد – في بغداد تحرق وتهدم ويمزق القران ويقتل الأئمـة والمؤذنون والمصلون من أهل السنة والجماعة على أيدي عصابات مجرمـة على مرأى ومسمع من حكام العرب والشعب العربي المسلم لا يسـتطيع أن يحرك ساكناً بسبب ظلم حكامه وعمالتهم وخضوعهم للصليب والتلمود فشتان بين ما نحن عليه الآن من ذل وخنوع وخضوع وتخاذل وبين ما كانت عليـه الأمة على عهد صلاح الدين الأيوبي لذا كان لزاماً علينا أن نذكر بان الأمـة

يجب أن تكون على ذلك القدر من الوعي بالمسؤولية الملقاة عليها حاكماً ومحكوماً حتى تستطيع الخروج من حالة الانكسار والتشرذم وتواجه عدوها على أساس متين وصحيح بعد أن ينفض الشعب العربي والإسلامي ثوب الذل ويثور على حكامه الذين نسوا الله فيهم ويتحمل مسؤولية كاملة ويكون أداة فاعلة لدرء الخطر عن نفسه وإجبار عبدة الكراسي على الخروج من حالة العبودية لأعداء الإسلام الى عبادة الواحد الاحد .

القائد القدوة

أن ما يحزن اليوم أن الأمة فقدت القائد القدوة الذي يستطيع أن يوجهها التوجيه الصحيح ويتحمل المسؤولية معها يداً بيد للخروج بها من ازمتها الحالية في مواجهة الهجمة الظالمة التي تقودها اميركا والغرب الصليبي بكل ثقله المادي والمعنوي فان بيئة صلاح الدين الأيوبي كانت تزخر بكل المقومات الايجابية القادرة على تكوين رعيل مؤمن قادر على تحمل المسؤولية حيث كان القائد القدوة موجوداً وكان المجتمع من خلال ذلك يعيش حالة التفاعل بين القائد وعلية المجتمع (العلماء والمثقفون واهل الحل والعقد) وكانت هذه الفئات متفاعلة مع الشعب ويمثل عمقها بدون تميز حيث كانت ولادة صلاح الدين الأيوبي في عام ٥٣٢ هـ في ذروة الجهاد وفي ذروة التفاعل الشعبي مع القيادة التي مثلها عماد الدين زنكي (رحمه الله) وكان عمر صلاح الدين الأيوبي يوم استشهاد ذلك البطل سنة ٥٤١ هـ تسع سنين وقد خلفه في قيادة الأمة في بلاد الشام وفي ذروة الصراع الصليبي مع الإسلام ولده نورالدين محمود الذي كان خيرُ خلفٍ لخير سلف والذي اصبح صلاح الدين الأيوبي فيما بعد يمينه الضاربة وقائداً في جيشه ونورالدين محمود غني عن التعريف بما يحمله من نبل الهدف والزهد والورع وقد اثرت هاتين الشخصيتين الجليلتين (عماد الدين ونور الدين) بكل ما تحملانه من صفات القائد القدوة في تكوين الشخصية القيادية عند صلاح الدين الأيوبي .

يقول ابن الاثير (ت ٦٣٠هـ) على لسان زين الدين علي نائب عماد الدين زنكي في الموصل (لما فتحنا الرها مع الشهيد ... امر الشهيد فنودي برد السبي والمال المنهوب وكان مهيباً مخوفاً وقد وقع من السبي بيدي جارية

اعجبني حسنها فرددتها) ، أن هذه الشهادة تدل على عمق الروابط بين القائد وجنده في الساعات الحرجة التي تمتحن فيها الرجال فكان لعماد الدين زنكي حضوراً فاعلاً في قلوب جنده وكانوا يطيعونه طاعة تدلل على حسن اخلاقه وعلى المستوى العالي للانضباط الذي كان يحمله جنده بحيث كانوا يمتثلون لكل ما يأمرهم وهذا يدلل على صدق النوايا بينه وبين رعيته اما عن نور الدين محمود فيقول (قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمة من قبل الإسلام الى يومنا هذا فلم ارى فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز ملكاً احسن سيرة من نورالدين ولا اكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه ثم ذكر من عدله وزهده وفضله وجهاده واجتهاده وكان كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب (١١)

وكان لا يقبل المدح المبالغ فيه وهذا من تواضعه لله ، قال له احد الفقهاء (بالله عليك لا تخاطر بنفسك والإسلام فان اصبت في معركة لا يبقى من المسلمين احد إلا أخذه السيف فقال له نور الدين ومن محمود حتى يقال له هذا من قبلي من حفظ البلاد والإسلام ذلك الله الذي لا الاله إلا هو) (١٢) .

وكان نورالدين محمود لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من مُلك اشتراه من سهمه من غنائم الكفار وكان يحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له وكانت زوجته تطلب منه المال وهي ابنة عز وشرف وأبوها معين الدين أنور صاحب دمشق فيقول: قد فرضت لها ما يكفيها والله لا اخوض جهنم بسببها وهذه الاموال ليست لي وانما هي للمسلمين وانما انا خادمهم ولا اخونهم بسببها (١٣) .

وكان نور الدين يلعب بالاكرة كثيراً فقد كتب اليه بعض الصالحين ينكر عليه ويقول انك تتعب الخيل بغير فائدة فكتب إليه نور الدين بخطه والله ما اقصد اللعب انما نحن في ثغر والعدو منا قريب فربما وقع الصوت فتكون الخيل قد ادمنت على سرعة الانعطاف فأبكر بالغزو اذا طلبنا العدو وادركنا ولو تركناها لحالها لصارت جهاماً لا ينتفع بها فسببي في لعبة الاكرة هذا (١٤) .

لقد كان للقائد القدوة المتمثل بشخصية عمادالدين زنكي ونور الدين محمود أثرٌ بالغٌ في بناء شخصية صلاح الدين وكان نورالدين محمود يؤثره ويقدمه ويثق به كثيراً ويقول ابو شامة (كان صلاح الدين لا يخرج على أمر نورالدين ويعمل له عمل القوي الامين ويرجع في جميع مصالحه الى رايه المستبين) (١٥) .

ونظراً لظهور علامات القيادة المبكرة في شخصيته اختاره عمه اسد الدين شيركوه سنة ٥٤٦هـ للعمل معه في حلب وكان عمه مرافقاً لنور الدين وحضي صلاح الدين عن طريق مرافقة عمه بمكانة حسنة ولائقة عند نورالدين وكان عزيز الجانب وكانت بداية عمله ضابط ارتباط بين نورالدين وعمه اسد الدين شيركوه واختير لما تميز به من الأمانة والشجاعة وحسن التدبير وقد قدم إلى بلاط نورالدين محمود مرات عديدة مبعوثاً من قبل عمه بمهام إدارية وعسكرية .

اذاً فان للقدوة دوراً بارزاً في استكمال الشخصية القيادية حيث كانت نتاجاً طبيعياً لاحتكاكه المباشر بصورته الايجابية الخلاقة مع نورالدين محمود

ووالده وعمه اثراً بارزاً في خلق الشخصية المتميزة التي تقاسمت بناءها الاسرة والمجتمع والقائد القدوة .[١٦]

وعندما تسلم والده نجم الدين سنة ٥٤٩هـ حاكمية دمشق كان صلاح الدين الأيوبي الذراع اليمنى لوالده في ادراتها وفي خدمة نورالدين محمود حيث تولى سنة ٥٦٠هـ رئاسة الشرطة فيها ونائباً عن واليها وكانت مهمته قيادة العساكر والمحافظة على النظام وجباية الخراج وفي ذلك يقول[١٧] عرقلة [*] الشاعر :

رويدكم يا لصوص الشام فاني لكم ناصح في مقالي

واياكم من سمي النبي يوسف رب الحجى والجمالِ

فذاك يُقطعُ أيدي النساء وهذا يقطع أيدي الرجالِ

ونظرا لما كانت عليه اخلاق صلاح الدين ونبله وشجاعته وإخلاصه ، فانه استطاع أن يصل الى قلب نورالدين محمود الى الحد الذي جعل نورالدين يعلن لمن حوله عن اجلاله وحبه لصلاح الدين ويقول عنه : (صاحبي.. صلاح الدين وفقه الله فانا منه شاكراً كثيراً جزاه الله خيراً وأبقاه معي بقاء الصالحين صلاح عظيم ومنعة لأهل الإسلام ، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير وحسبنا الله وهو نعم الوكيل) [١٨] ولم يخرج صلاح الدين عن طاعة سيده نورالدين وأوامره [١٩] ، واثبت له اخلاصاً منقطع النظير وكان صلاح الدين يبلغه من أقوال نورالدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتغيضه غير انه يلقاها بصدر رحب وخلق عذب وكان بعد وفاة نورالدين محمود يكثر من الترحم عليه بمجلسه [٢٠] ، أن هذا الموقف يعكس مدى العلاقة والمودة بين نورالدين محمود وصلاح الدين حيث عرف صلاح الدين عن قرب وعن

كثب شخصية ولي نعمته نورالدين وحسن سريرته ويعلم يقيناً أن كلامه هــو لمصلحة الأمة والإسلام وغضبه لهما .

عقلية قيادية فذة

لقد لعبت الظروف دوراً كبيراً في جعل صلاح الدين بصـــفاته القياديـــة المؤمنة مؤثراً بمن حوله وأصبح قدوة لهم ، يقول العماد الاصفهاني (وعدنا من الإسكندرية في شهر رمضان فصمنا بقيـــة الشهر في القـــاهرة والسلطان (أي صلاح الدين) متوفر في ليله ونهاره على نشر العدل وانشاره اماطـــة الجود واعزازه وسماع أحاديث الرسول ﷺ واخباره واشاعة العلم والاعلان باسراره وابداء شعار الشرع واظهاره وابقاء المعروف على قراره واعـــدام اعلام الباطل وانكاره [٢١] .

وهذا يقودنا الى القول ان اختيار نورالدين محمود لصلاح الدين ليكـــون عوناً ومرافقاً وقائداً مع عمه اسد الدين شيركوه الى مصر كان اختياراً موفقاً لانه توسم به الشجاعة والاقدام والقدرة على اتخاذ القرار والقدرة على تحمل المسؤولية حيث سار اسد الدين شيركوه الى مصر واستصحب معه ابن اخيه صلاح الدين وجعله مقدم عسكره وصاحب رايه فكان لا يفعل امراً ولا يقدر حالاً إلا بمشورته ورأيه لما لاح فيه من آثـــار الإقبـــال والســـعادة والفكـــرة الصحيحة واقتران النصر بحركاته وسكناته [٢٢]، وقد امتاز بقدرته على تحمل المسؤولية حيث تجلت هذه الصفة بصورة واضحة عندما عاد جيش الشام الى مصر للمرة الثانية سنة ٥٦٢هـــ وحصار الفرنج للاسكندرية ، حيث ذكر ابو شامة شعراً للعرقله يقول :

اقـــول الاتـــراك قـــد ازمعـــت مصـــر الى حـــرب الاغـــاريـــبِ
ربي كما ملكتها يوسف الصديق مـــــن اولاد يعقـــــوبِ
يملكهـــا في عصرنـــا يوســـف الصـــادق من اولاد أيـــــوبِ
مـــن لم يـــزل ضـــرب هـــــام العـدا حقـاً وضراب العراقيبِ [٢٣]

ذلك أن اسدالدين والعسكر النوري ساروا الى الصعيد فبلغوا مكاناً يعرف بالبابين وسارت العساكر المصرية الموالية لشاور[*] والفرنج وراءهم فادركوهم في ٢٥ جمادى الاولى ، فاستشار اصحابه فكُلهم اشاروا عليه بعبور النيل الى الجانب الشرقي والعودة الى الشام ولكن احد قادته من المماليك النورية يقال له شرف الدين برغش كان من الشجاعة من المكان المشهور وقال من يخاف القتل والجراح والاسر فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً ومع النساء في بيته ... فقال اسدالدين هذا رائي وبه اعمل ووافقهما صلاح الدين ثم كثر الموافقون على القتال فاجتمعت الكلمة على اللقاء فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون وهو على تعبئة وقد جعل الاثقال في القلب يتكثر بها ولأنه لم يمكن تركها في مكان آخر فينهبها أهل البلاد وجعل اسدالدين شيركوه ابن أخيه صلاح الدين في القلب وخططوا للاتي :

١. اخبر اسدالدين ابن أخيه صلاح الدين بان معسكر الفرنجة سيظنون انه في القلب فتكون حملتهم الرئيسة على القلب وأمره أن يتراجع في حالة قيام العدو بزخم الهجوم على القلب وقد ظهرت إمكاناته القيادية عندما كان قائداً لمقدمة العسكر فاظهر من القدرة ما لفت إليه أنظار الجميع ويتقهقر

بتكتيك منظم يجعل العدو يندفع خلفهم ، ويقول السيوطي (وقد وقع في النفس أن صلاح الدين سيملك الديار المصرية) [٢٤] .

٢. يقدم اسدالدين مع بعض القادة والجند الذين اختارهم لمباغتة العدو بصولة عزوم من الأجنحة لإيقاع اكبر عدد من جنوده بين القلب والصولة وقد نجحت الخطة من خلال التقيد التام والانضباط العالي الذي اتصف به صلاح الدين وقدرته على تحمل المسؤولية كاملةً لنجاح الخطة ونجحت قوة تعدادها ألف فارس هزيمة الجيش المصري بقيادة شاور والجيش الفرنجي المتجحفل معه كما استطاعت قوات الشام بقيادة اسدالدين وصلاح الدين الوصول الى الاسكندرية .

وحال وصولهم اختار اسدالدين ابن اخيه صلاح الدين نائباً عنه حيث نجح للمرة الثانية في صد قوات مصر بقيادة شاور والقوات الفرنجية التي عادت بعد إعادة تنظيمها لقتال جيش الشام وحصار الإسكندرية اربعة اشهر حيث استطاع منع وقوعها بيد الفرنجة ويمكن أن نعزو ذلك الى قدرته القيادية الفذة ومهارته في استنهاض الهمم واستقطاب سكان الاسنكدرية الى صفه الذين دافعوا عنها ببسالة فائقة وبذلوا له الغالي والنفيس للدفاع عنها ويمكن أن تعلل وقوف أهل الإسكندرية إلى جانبه للاتي :

١. حرصهم الشديد على عدم وقوع مدينتهم بيد الافرنج نظراً لاهميتها الاستراتيجية في قلب ميزان القوى لصالح عدوهم .

٢. تذمرهم من سياسة شاور وتآمره مع الافرنجة أعداء الإسلام .

٣. إن التفافهم حول صلاح الدين يدفعنا الى القول إن اهل الاسكندرية كانوا يتبنون المذهب السني وهذا احتمال وارد .

٤. شخصية صلاح الدين وامكانته القيادية وقدرته على التاثير في الوسط الجماهيري بما يحمله من نبل وشجاعة وعقيدة صحيحة جعلتهم يلتفون حوله لانهم وجدوا فيه القائد والقدوة الذي كانت تحتاجه المرحلة الحرجة حيث نجح في اثارة الحماس في نفوسهم ولفت انظارهم الى ضرورة الدفاع عن ممتلكاتهم ومقدساتهم وان جهادهم واجب ، لأنه جهاد مع العدو فبذلوا له الغالي والنفيس وكانوا بنفس المستوى من الاندفاع والتضحية في سبيل الله .

ويقول أبو شامة في هذا الصدد : (وصدق اهل الاسكندرية القتال مع صلاح الدين)[٢٥] . وابدع الشاعر العماد الاصفهاني في وصف وشجاعته وحسن تدبيره بقوله :

وحميت الاسكندرية عنهمُ ورحى حربهم عليها تدور

حاصروها وما الذي بان من ذبك عنها وحفظها محصور

فاشكر الله حين أولاك ثغراً فهو نعم المولى ونعم النصير [٢٦]

وقد عبر صلاح الدين الأيوبي عن معاناته اثناء حصاره بقوله (فقد لقيت بالاسكندرية من المشاق ما لا انساه ابداً) [٢٧] .

ويقول صلاح الدين الأيوبي (ولما وردت الكتب من مصر الى الملك العادل نورالدين (رحمه الله) سنة ٥٦٤هـ مستصرخين ومستنجدين احضرني واعلمني الحال وقال تمضي الى عمك اسدالدين بحمص مع رسولي اليه يامره بالحضور وتحثه انت على الاسراع فما يتحمل الأمر التأخير فقال

ففعلت) [٢٨] وعند وصول اسدالدين شيركوه الى نورالدين محمود قال له تجهز للمسير فامتنع خوفاً من غدرهم (أي المصريين) وعدم وجود ما ينفقه في العساكر ثانياً فاعطاه نورالدين الاموال والرجال وقال له أن تاخرت انت عن المسير فالمصلحة تقتضي أن اسير انا بنفسي اليها فإننا أن اهملنا امرها ملكها الفرنج فلا يتبقى معهم مقام بالشام وغيره ، قال صلاح الدين فالتفت الي عمي اسدالدين وقال تجهز يا يوسف ... فقلت والله لو اعطيت ملك مصر ما سرت اليها (بسبب ما عاناه في حصار الاسكندرية وقتاله لشاور والافرنج الذين دعاهم لقتال جيش الشام) فقال لي نورالدين لابد من سيرك مع عمك وفي ذلك يقول اسامة بن منقذ في قصيده يمدح بها صلاح الدين :

وردَ طاغية الافرنج بحسب ما — رضاه من ملك مصر كان في الحلم

وهم اسود الشرى لكن اذلهم — ملك لديه الاسود الغلب كالغنم

وفي قصيدة اخرى جاء فيها :

وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم — خزايا عليهم خيبة الذل والرد[٢٩]

ولابد من الوقوف على كلام نورالدين محمود الذي جاء فيه فاننا أن أهملنا أمرها ملكها الإفرنج فلا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره .

لو أن حكام العرب والمسلمين اليوم كانوا يمتلكون هذه الرؤية الثاقبة التي إستقرأت الوضع العام بما تحمله من صدق العقيدة والشجاعة لوقفوا نفس الموقف وجندوا جيوشهم وشعوبهم للوقوف الى جانب اخوانهم في الدم والعقيدة في العراق ولما سمحوا للقوات الأميركية والعصابات الصهيونية والإيرانية أن تحتل العراق وتعبث بأمنه واستقراره وتضع المنطقة العربية

والشرق الأوسط برمته في كف عفريت تتنازعه قوى ظالمه متجبرة واحزاب لا هَمَ لها إلا مصالحها الشخصية الضيقة وخيمت الطائفية والعنصرية والانانية الفردية على المسرح السياسي العام واصبح العراقيون يقتلون بالمئات يومياً على يد القوات الأمريكية والعصابات المرتبطة بقوى خارجية وفقد العراق الأمن والامان ونهبت ثرواته وبدت دعوات القوى اللاوطنية تدعو الى تمزيقه وتحويله الى اقاليم شمال وجنوب ووسط لغرض التجزئة التي أرادتها أميركا والكيان الصهيوني حيث المؤامرة الجديدة القديمة بتقسيم العراق كما قسم الوطن العربي من قبل باتفاقية سايكس بيكو جديدة أي بتقسيم المقسم وتجزئة المجزء حيث بدت أميركا والكيان الصهيوني بحرب جديدة على بلاد الشام وبدأوا يهددون سوريا واصبحت هدفاً جديداً لحملة صليبية جديدة على بلاد الشام فزوال الاستقرار من العراق سيطال عاجلاً ام آجلاً جميع البلاد العربية وسيهز الكراسي المتهرئة التي يجلس عليها الزعماء العملاء الذين لا هم لهم إلا الجلوس على الكراسي واصبحوا قيداً يكبل شعوبهم وسيفاً على رقابهم ولكن الشعوب العربية بما يعرف عنها من حس ديني قومي وطني سوف لن تقبل ولن تضل ساكتة ولابد لها من أن تنهض من سباتها وتنفض عنها غبار الذل والهوان الذي فرضته عليها أنظمتها المهلهلة وحكامها الجبناء الذين اصبحوا عبيداً تسيرهم الادراة الاميركية المجرمة بقيادة بوش والكيان الصهيوني ورضوا أن يكونوا ذيولاً واقزاماً يأتمرون بأمرهم وسيكتب التاريخ عنهم اخباراً تظل عاراً وخزياً لهم في الدنيا وفي الاخرة عذاب عظيم .

وبعد وفاة عمه اسدالدين شيركوه فوض الامر اليه واستقرت القواعد والاحوال على احسن نظام ... ولما علم الافرنج بما صح له في مصر جمعوا

وحدثوا نفوسهم بالاستيلاء عليها فقصدوا دمياط ... وآل الأمر بحسن تدبير صلاح الدين وسعادتهِ وجدهِ الى أن رحلوا عن دمياط خاسرين تاركين التهم العسكرية وجثث قتلاهم في ساحة المعركة .[٣٠]

لقد نجح صلاح الدين (رحمه الله) في السيطرة على مصر ادارياً وعسكرياً وكان اهلاً لتحمل المسؤولية على الرغم من وجود امراء كانوا اكبر منه سناً [٣١] ، وقد ابدع الشعراء في وصف حسن تدبيره وامكانياته القيادية ومن ذلك يقول العماد الاصفهاني في قصيدة :

يا يوسف الحسن والاحسان يا ملكاً　　بجده صاعداً أعداءه هبط

مصر بيوسفها اصبحت مشرفة　　وكل امر لها بالعدل منضبط

وحين وافى صلاح الدين اصلحها　　فالمصالح من أيامه نمط

قام باحوالها يديرها حسناً　　وافعالها يحفضها

بعدله والصلاح يعمرها　　وبالندى الجميل يكنفها

وان مصر بملك يوسفها　　جنة خلدٍ يروق زخرفها

وانه في السماح حاتمها　　وانه في الوقار احنفها

ويقول (واستقر صلاح الدين بملك الصلاح) .[٣٢]

وعلى الرغم من جهاده الذي وصف لنا هو جزء من المعاناة التي المت به إلا أنه كان مترفعاً عن المناصب زاهداً فيها وكان قتاله للافرنج جهاداً في سبيل الله لا طمع بمنصب او ملك يؤيد ذلك ما اوردته لمصادر أن الخليفة العاضد الفاطمي ارسل اليه يطلب منه الحضور الى قصره ليخلع عليه خلع

الوزارة وينصبه على ما كان عليه عمه من الامــر فــامتنع صــلاح الــدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فالزم به واخذ كرهاً .(٣٣)

أن موقف صلاح الدين الأيوبي يقودنا للاعتبار بما نحن عليه الآن فــي العراق الجريح الذي يقع تحت حراب ابناء القردة والخنازير من الامريكــان ومن تجحفل معهم من قوى الغدر بالحملة الصليبية الثانية حيث القتل اليومي المبرمج ومن يدعون انهم حرروا العراق من حكم صدام حسين يتصــارعون على تقسيم المناصب والحقائب الوزارية ويتداعون عليها تداعي الأكلة علــى قصعتها غير عابئين بما يحصل لشعبهم من استباحة للمدن قتلاً وتشريداً باسم مكافحة الإرهاب ونشر الديمقراطية على الطريقة الامريكية وتجــري فيهــا محاكمة الرئيس صدام حسين في سيناريو اشبه بالمهزلة على جرائم صــحت او لم تصح فان الحكومات التي تولت قيادة العراق سواء كانت حكومة ايــاد علاوي او سابقتها التي اتى بها الحاكم العسكري الامريكي بريمر حيث نصب لحكم العراق في كل شهر حاكم وحسب الحروف الابجدية وهذه المهزلة لــم يسمع بها التاريخ سابقاً وحاضراً حيث أصبح فيها العراق يحكم في السنة بــ (اثني عشر رئيساً) فإنا لله وانا اليه راجعون وفي حكومــة ايــاد عــلاوي ضربت الفلوجة وذبح اهلها بمشاركة الحكومة التي نصبها الاميركان وضربت النجف واستبيح اهلها ايضاً فلا فرق بين شيعي وسني فالكل مستهدف ودمهم مهدور فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، اما حكومة الجعفري فانهــا جندت فرق الموت وعصابات الجيش الاسود لقتل الابرياء من اهــل الســنة والجماعة وهدم المساجد وحرقها وقتل ائمتها ومؤذنيها ومصليها وتحــاول أن تفرض نفسها على الواقع العراقي متشبثةً بالمناصب فارضــةً المحاصصــة

الطائفية العنصرية و اقصاء القوى الوطنية عن الساحة السياسية معتبرة الدفاع عن الأرض والعرض والوطن ارهاباً وترفض الاعتراف بالمقاومة الشرعية التي اقرتها قوانين الأرض والسماء فليقرأ الساسة العراقيون سيرة صلاح الدين ويتخذوا منه قدوة لتحرير ارضهم بعيداً عن المناصب والكراسي وها هو صلاح الدين الغائب الحاضر الذي ما إن يذكر الجهاد حتى يقرن اسمه معه ورفع الله ذكره فماذا سيقول التاريخ لمن جاء تحت ظل مدافع أعداء الله والانسانية من الامريكان ومن حالفهم إلا أن يكون في نهاية الامر في مزبلة التاريخ كما كان شاور الذي استنجد بالفرنج لقتال اهله فكانت عاقبة أمره القتل وظلَّ اسمه عاراً على مر الزمن وكذلك سيكون عاراً كما كان ابن العلقمي وقبله ابو رغال فليقرأوا التاريخ ويستقرؤوه ويتقوا الله في شعوبهم ويحاولوا أن يصححوا أخطاءهم وينقضوا أيديهم مما علق بها من اثام وجرائم بحق شعبهم وامتهم .

حسن التدبير والحيلة

وهي صفة من صفات صلاح الدين وقد لعبت دوراً كبيراً في نجاح خطط اسد الدين شيركوه والدليل على ذلك عملية تصفية الوزير شاور والتي كانت بتخطيط بين اسد الدين وصلاح الدين والأمراء الذين معهم حيث وجدوا أن لا سبيل الى استقرار مصر مع بقاء الوزير شاور وعلموا أن الإفرنج متى وجدوا فرصة اخذوا البلاد وان ترددهم اليها في كل وقت لا يجدي نفعاً فقد دخلت قوات الشام الى مصر للمرة الثالثة دون أن تحقق نصراً حاسماً وان شاور يلعب بهم تارة وبالإفرنج تارة أخرى وكان قد وعدهم بأموال ونفقات

فلم يصلهم منه شيء فاجمعوا أمرهم بالقبض عليه والتخلص منه وكان شاور يركب في مركبه والعساكر بين يديه فلم يتجاسر احد على قبضه إلا أن صلاح الدين الأيوبي وبما يملكه من صفات القيادة وحسن التدبير والحيلة والشجاعة والإقدام والقدرة على اتخاذ القرار مهما كانت النتائج لذلك لم تخذله الهيئة والهيبة التي كان عليها شاور وهو بين جنده وأصحابه فتلقاه راكباً وسار الى جنبه واخذ بتلابيبه وامر عسكره أن يهجموا على أصحابه ففروا ونهب عسكرهم وقبض على شاور وانزله في خيمة منفردة وجاءه في الحال التوقيع من قبل الخليفة العاضد بقتله فقتل وهذه هي النتيجة الحتمية لكل خائن وجبان يحاول أن يسلم بلده ووطنه وأهله إلى القوات الأجنبية الغازية وهذا هو حال المنافقين والمتآمرين على مر العصور والأزمان .

ولابد من الإشارة هنا أن شاور اعد خطة لقتل اسد الدين وصلاح الدين والأمراء الذين برفقتهم وقد نهاه ابنه الكامل عن فعل ذلك فقال له شاور والله لان لم افعل هذا لنقتلن كلنا فقال له ابنه لان نقتل والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل والبلاد بيد الإفرنج (٣٤) .

وفي رواية أن اسد الدين لم يوافق على قتل شاور وبعدما علم بإصرار صلاح الدين وجردريك (*) على قتله قال لا تفعلا فنحن في بلاده ومعه عسكر عظيم فسكتا وعلى ما يبدو فانهما قررا قتله والتخلص منه لأنهما علما أن قتله نصراً للإسلام والمسلمين وخلاصاً من المتآمرين والمتخاذلين وانه كان حرباً عليهم ، (وكان جباراً لا ينظر في عاقبة الأمور سفاكاً للدماء) . (٣٥)

وقد هجا الشعراء شاور ومدحوا صلاح الدين وقال احدهم (٣٦) :

هو الاسد الضاري الذي جل خطبه وشـاور كلب الرجـال عقورُ

بغـا وطغـا حتى لقـد قـال قائل على مثلهـا كان اللين يـدورُ

فـلا رحم الرحمـن تربـة قبـره ولا زل فيهـا منكر ونكيـرُ

وكذلك قيامه بتصفية جيوب المتآمرين والمتخاذلين حيث قام بقتل خصي يدعى مؤتمن الخلافة والمتحكم بالقصر حيث اجمع هو ومن معه على مكاتبة الافرنج والقبض على الاسدية والصلاحية ونجح صلاح الدين بالكشف عـن خيوط المؤامرة مع الافرنج وكان الكتاب الذي ارسلوه الى الافرنجـه بخـط رجل يهودي اعترف بكتابته فاهدر صلاح الدين دم مؤتمن الخلافة في قصره يوم الاربعاء ٢٥/ ذي القعدة /٥٦٤هـ وكان الذي اخبر عن هذه المؤامرة ابن مصال الذي فضح المتامرين وكشف عن نيتهم في مكاتبة الافـرنج واقامـة خليفة ووزير فاحضرهم واحداً واحداً فقررهم فاعترفوا واعتـذروا بكـونهم قطعت أرزاقهم وأخذت اموالهم واحضر صلاح الدين العلماء واستفتاهم فافتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم ، ونتيجة لقتلهم تمرد السودان وثاروا وكان عددهم اكثر من خمسين الف ودارت رحى معركة بين أنصار صلاح الدين والسودان مدة يومين انتهت يوم السبت ٢٨/ذي العقدة/٥٦٤هـ بانتصار جيش صلاح الدين (رحمه الله).

كما نجح في عام ٥٧٠هـ في انهاء تمرد الكنز(*) الذي جمـع حولـه الانصار من السودان وقصد قوص(*) واعمالها فجرد له صلاح الدين الأيوبي السيف وجعل على مقدمة جيشه اخاه الملك العادل سيف الدين فـالتقى بهـم واستأصل شأفتهم وقتل منهم خلقاً عظيماً في ٧ صـفر سـنة ٥٧٠هـ[٣٧]

واستقرت قواعد الملك لصلاح الدين واستوت اموره ولابد من الاشارة الى أن تمرد الكنز كان امتداداً لتامر السودان بقيادة مؤتمن الخلافة حيث كان هؤلاء يسيطرون على مقدرات الخلافة الفاطمية وظهور صلاح الدين الأيوبي أبعدهم عن السلطة والقيادة ومن خلال استعراضنا الإحداث نستطيع القول أن حسن التدبير والحيلة في الحق والقدرة على اتخاذ القرار في الوقت المناسب كانت صفاتاً واضحة وبارزة في شخصيته وان التردد لا يعرف الى قلبه سبيلاً وكان سريعاً في الرد على أعدائه ومنعهم من التمادي بشكل لا يعطي لهم فرصة لذلك ، أن سرعة حزمه كانت عاملا مهما في استقرار الأوضاع واستتباب الأمن حيث كان لا تأخذه في الحق لومة لائم وان مصلحة البلاد والعباد عنده فوق كل شيء وهذه من الدروس المستخلصة والعبر المهمة التي يجب أن يتحلى بها كل قائدٍ عربيٍ مسلم غيور على أمته وعقيدته وبلاده .

ويمكن القول أن صلاح الدين الأيوبي كان يمتلك المميزات التالية :

١. نجاحه في استقراء الظروف الموضوعية التي تحيط به داخلياً وخارجياً .
٢. قدرته على فهم واقع عدوه وظروفه واتخاذ الخطوات التي تحقق له إمكانية معالجة ردود الفعل التي قد يقوم بها العدو رداً على قراراته وإجراءاته ضده .
٣. الهدوء وعدم التسرع في اتخاذ أي قرار إلا بعد التأكد من قدرته على تنفيذه وتحقيق الغاية المرجوة .
٤. امكانياته في توظيف قدراته المادية والمعنوية في التأثير الايجابي لتحقيق نتائج ايجابية للقرار القيادي الذي يقدم عليه .

٥. قدرته على اتخاذ الاجراءات السريعة والصائبة التي يتطلبها الزمان والمكان في تحقيق نتاج القرار .

٦. يؤكد ذلك انه طلب من ملك الافرنج بعد عقد الصلح الذي حصل بعد حصار الاسكندرية سنة ٥٦٢هـ وانسحاب قوات بلاد الشام من مصر مراكب ليحمل فيها الضعفاء من اصحابه فوافق ملك الافرنج فارسل له عدة مراكب [٣٨] ، وفي حصار عكا سنة ٥٨٦هـ كان الناس بامس الحاجة الى المؤن ووصلت سفن من بيروت وكانت ملأى بأنواع المؤن ودخلت الى عكا بحيلة حيث قام الجند الإسلامي بحلق لحاهم ولبس زي الافرنج وعلقوا الصلبان وجعل الخنازير تظهر فظن الافرنج انها منهم فسلمت ودخلت القاهرة وكان في نهاية الحاجة اليها .[٣٩]

الزهد والكرم والاهتمام بالرعية

الزهدُ : (خلو القلب من محبة الدنيا لا خلو اليد منها) .

ولنور الدين محمود قول في هذا (الدنيا تهرب ممن طلبها وتطلب ممن هرب منها)[٤٠] ، اذن فالزهد صفة من صفات المجاهدين الصادقين لان الذي ينذر نفسه لله يهون عليه بعدها كل مطلب ، لذلك نجد صلاح الدين (رحمه الله) وكما هو قدوته وولي نعمته نور الدين محمود (رحمه الله) زاهدين في الدنيا همهما الجهاد واسعاد العباد وحفظ البلاد فعندما تولى صلاح الدين امارة مصر بعد موت العاضد اصدر مرسوماً بإسقاط المكوس في ٣/صفر/٥٦٧هـ وفي نظرة تحليلية للمنشور (المرسوم) دلالة على اهتمامه بامر الناس وحياتهم وحرصه على استمالتهم ورعايتهم لانه يعلم انهم الأداة التي يتحقق

من خلالها هدفه في دحر العدو وهزيمته وبهم ومن خلالهم يعز الإسلام واهله حيث جاء في ثنايا المرسوم (اما بعد فإنا بحمد الله سبحانه وتعالى على مـا مكن لنا في الأرض وحسبه عندنا من اداء كل نافلة وفرض ونصبنا له مـن ازالة النصب عن عباده واختارنا له من الجهاد بحق جهاده وزهدنا فيه مـن متاع الدنيا القليل والهمنا في محاسبة انفسنا فيه ... واولانـا مـن الشـجاعة والسماحة ... ولما تقلدنا امور الرعية راينا المكوس الديوانية بالقاهرة ومصر اولاً ما فعلناها من أن تكون لنا في الدنيا إلا أن تكون لنا في الاخـرة ، وان نتجرد فيها لنلبس الثواب الاجر الفاخرة ... ونكفي الرعية ضرهم الذي توجه اليهم (ونضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم) [*] .

وكان مقدار ما أسقط (٢٠٠٠٠٠) الف دينار ،[٤١] ولتاكيد زهده فانـه بعد انتصاره على قوات حلب والموصل سنة ٥٧١هـ واستيلائه على اثقالهم واموالهم وفرارهم من امامه يقول ابو شامة (بسط في جميع ذلك ايدي الجود وفوقها على الحضور والشهود وأبقى فيها نصيباً للرسل والوفود وفـرق مـا وجد في خزائن سيف الدين [٤٢] ، كما أبطل في العام ٥٧٤هـ ، المكس الذي كان بمكة على الحجاج [٤٣] ، وفي سنة ٥٨٦هـ ، وصل رسول من الخليفـة الناصر لدين الله العباسي ومعه رقعة مـن ديـوان الخلافـة تتضـمن الاذن للسلطان صلاح الدين فـي ان يقتـرض

(٢٠٠٠٠) الف دينار من التجار وينفقها في الجهاد ويحيـل بهـا عـن ديوان الخلافة (الديوان العزيز ... فاستعفى من الرقعـة) [٤٤] ولابـد مـن الاشارة الى أن صلاح الدين الأيوبي ومنذ اللحظة الاولى لاستلامه مهام مصر بعد انهاء الوجود الفاطمي ارسل رسالة الى الخليفة العباسي يخبره بما عليـه

مصر من سوء التدبير وفساد النظام وضعف الإسلام وقد وقفت الخلافة العباسية ابان حكم الخليفة الناصر بكل ثقلها الى جانب السلطان صلاح الدين الأيوبي مادياً ومعنوياً ، وان هذا التصرف يدلل على زهد صلاح الدين (رحمه الله) وكان كلما استولى على خزانة وهبها وكلما فتح له خزانة ملك انفقها ولا يبقي لنفسه شيئاً إلا انه يسرع في استغلال هذه الاموال للتاهب لغزو العدو وقصد بلاده وهذه صفة جديدة من صفات القائد العبقري الذي يستغل الاموال لقتال العدو والايقاع به من خلال استغلال حالة الرضا لدى الامراء والقادة والاجناد بعد أن يفرق عليهم الاموال حيث تشتد عندهم حالة الاستعداد والتضحية عندما يرونه زاهداً وهمه الجهاد فيكونون عند مستوى الطموح الذي يريدهم عليه فيندفعون بحماسة الى القتال ونفوسهم راضية مطمئنة فيتحقق بذلك النصر على العدو بشكل لافت وسريع ويتحقق ما يصبو اليه وما يصبون اليه .

الوفاء وعدم نكران الجميل

وهذه صفة كان صلاح الدين جديراً بحملها وتطبيقها في الواقع العملي لانه عاش حياته كلها من اجل دينه وأمته والوفاء صفة من صفات المؤمنين الصادقين ففي حصار الاسكندرية سنة ٥٦٢هـ وقف اهل الاسكندرية الى جانبه وفاءً بوعودهم لعمه اسد الدين الذي طلب منهم الالتفاف حول ابن اخيه حيث غادر الاسكندرية متوجهاً الى الصعيد وترك صلاح الدين وجماعة قليلة من عسكره ومعهم المرضى والجرحى وقد ابلى اهل الاسكندرية في نصرته بالمال والانفس ودافعوا عن مدينتهم في مواجهة حصار الوزير شاور

والافرنج وقد نجحوا في رفع الحصار عن الاسكندرية وانسحب اسدالدين الى بلاد الشام ونتيجة لذلك قام شاور بالقبض على من اعان صلاح الدين من اهل الاسكندرية ولما علم صلاح الدين لما جرى لهم عاد واجتمع بملك الافرنج واخبره ان شاور نقض الأيمان وقبض على من لجأ الينا فقال ليس له ذلك وارسل الى شاور وقال له أن الصلح جرى على أن لا تعرض لأحد من اهل مصر ولا من يلجأ الى اسد الدين او صلاح الدين وقد اضطر شاور الى الخروج بنفسه وليطمئن الناس وحلف لهم وعلى الاحسان لهم وحماية انفسهم واموالهم فمنهم من وثق به ومنهم من لم يثق (٤٥)، وهذا يدلل على الوفاء ، لاهل الاسكندرية وعدم تركهم تحت رحمة شاور وقد جر هذا الوفاء وفاء اخر حيث قام ابن مصال وهو من وجوه أهل الإسكندرية بإخباره عن تآمر مستحكم القصر مع جماعة لقتل صلاح الدين وكشف لهم تآمرهم عليه (٤٦)، وقد علق الشاعر عن ذلك بقوله :

من كان أهل الحق في ايامه وبعزه يردون اهل الباطل(٤٧)

وهكذا نجح صلاح الدين أن يعبأ الشعب ويجعله عمقاً ستراتيجياً له وعيناً ساهرة تحافظ على أمنه واستقراره وأصبحت العلاقة بينه وبين الشعب قائمة على المودة والمحبة والحرص بين الحاكم والمحكوم لأنهم عرفوه وخبروه بصدق عقيدته ونبل هدفه وفي ذلك يقول الشاعر يوسف بن حسين :

مولى غدا للدين اكرم والد حدب على ابناءه مترفرف(٤٨)

المصادر والمراجع

ابن الأثير ، محمد بن عبدالكريم الجزري (ت – ٦٣٠ هـ)

١- الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ، تح: عبد القادر احمد صليحان (مصر – ١٩٦٣)

٢- الكامل في التاريخ ، دار الفكر (بيروت – ١٩٧٨)

ابن إياس ، محمد بن احمد (ت – ٩٣٠ هـ)

٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور (القاهرة – ١٩٧٥) نشر جمعية المستشرقين الالمانيين .

ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف (ت – ٨٧٤ هـ)

٤- النجوم الزاهرة في اخبار سلوك مصر والقاهرة (القاهرة – ١٩٣٥م)

٥- النجوم الزاهرة في حلى القاهرة ، تح: د. حسين نصار ، دار الكتب (مصر –١٩٧٠)

الحموي ، ياقوت بن عبدالله (ت – ٦٢٦ هـ)

٦- معجم البلدان ، دار صادر (بيروت – لبنان) .

ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت – ٦٨١ هـ)

٧- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تح: محمد محي الدين عبدالحميد (مصر – لات)

أبو داود ، سلمان بن الاشعث السجستاني (ت – ٢٧٥ هـ)

٨- سنن ابي داود ، تح: محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الفكر،ص٤٢٩٧

الدواداري ، ابو بكر عبدالله بن ايبك (ت – ٧٣٥ هـ)

٩- كنز الدرر وجامع الغرر (بيروت – لات) .

الذهبي ، محمد بن احمد بن عثمان (ت-٧٤٨ هـ)
١٠- دول الإسلام ، ط٢ (حيدر آباد - ١٣٦٤هـ)

سبط ابن الجوزي ، شمس الدين ابي المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت-٦٥٤هـ)
١١- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، ط١(حيدراباد -١٩٥١)

ابن سعيد ، أبي الحسن الاندلسي ،
١٢- الغصون اليافعة ، تح : إبراهيم الانباري (القاهرة - لات)

السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت-٩١١هـ)
١٣- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (القاهرة-١٣٢١هـ)

أبو شامة ، شهاب الدين محمد بن عبدالرحيم (ت - ٦٦٥هـ)
١٤- الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تح: محمد حلمي - محمد مصطفى (القاهرة -١٩٥٦)، (القاهرة -١٩٦٢)

ابن شاهنشاه ، الملك المنصور محمد بن عمر الايوبي (ت-٦١٧هـ)
١٥- مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تح: د. حسن حبش (القاهرة-١٩٦٨) .

ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع (ت - ٦٣٢ هـ)
١٦- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تح: د.جمال الدين الشيال (القاهرة - ١٩٦٤) .

الاصبهاني ، عمادالدين الاصبهاني
١٧- خريدة القصر وجريدة العصر ، تح: د. بكري فيصل ، ط١ ، قسم الشعراء الشام (دمشق - ١٩٦٨) .

ابن العديم ، كمال بن القاسم عمر (ت-٦٦٠هـ)
١٨- زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تح: سامي الدهان (بيروت-١٩٦٨م)

✍ **العليمي** ، عبدالرحمن الجبري العمري (ت-٩٢٧هـ)
١٩- الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل (النجف- ١٩٦٨م)

✍ **ابن العماد الحنبلي** ، ابي الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت-١٠٨٩هـ)
٢٠- شذرات الذهب في اخبار من ذهب (لبنان – لات)

✍ **ابن الفرات** ، ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم (ت – ٨٠٧ هـ)
٢١- تاريخ ابن الفرات ، تح: محمد الشماع (البصرة-١٩٦٧)

✍ **القلقشندي** ، ابو العباس احمد بن علي (ت – ٨٢١ هـ)
٢٢- صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة – لات)

✍ **ابن كثير** ، عماد الدين ابو الفدا اسماعيل (ت – ٧٧٤هـ)
٢٣- البداية والنهاية (القاهرة – ١٩٣٢)

✍ **ابن واصل** ، جمال الدين محمد بن سالم (ت – ٦٩٧ هـ)
٢٤- مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، تح: جمال الدين الشيال (القاهرة – ١٩٥٧)

المراجع الحديثة

✍ **بروكلمان** :
٢٥- تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة بنيه فارس و منير البعلبكي (بيروت – ١٩٦٥)

✍ **ابو بكر** ، جلال طه
٢٦- صلاح الدين (بغداد – ١٩٩٧)

✍ **دريد عبدالقادر** ،
٢٧- سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ٥٧٠-٥٨٩ (الموصل – لات) .

✍ **رينتز ،**

٢٨- الدراسات الاسلامية ، تراجم باشراف د. نيقولا زيادة (بيروت-١٩٦٠)

✍ **سعداوي ،**

٢٩- نظير حسان ، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين (القاهرة – ١٩٥٧)

✍ **سعيد عبدالفتاح عاشور ،**

٣٠- الحركة الصليبية ، ط٣، مكتبة الانجلو المصرية (مصر- ١٩٧٥)

✍ **صلاح الدين البحيري ،**

٣١- المخابرات الايوبية في مواجهة الصليبيين ، مجلة المؤرخ العربي ١٩٩٠.

✍ **هارولد لامب ،**

٣٢- شعلة الاسلام ، ترجمة محمود عبدالله (بغداد – ١٩٦٧)

✍ **هاملتون جب ،**

٣٣- صلاح الدين الايوبي ، دراسات في التاريخ الاسلامي ، تحرير يوسف ايبش (بيروت – ١٩٧٣)

✍ **هـ - أ فيشر ،**

٣٤- تاريخ العصور الوسطى : ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني (القاهرة – ١٩٧٦)